آراء

التأويل السياسي المُفرِط

أحمد سعداوي

في كتابه «التأويل والتأويل المفرط» (جامعة كامبردج، لندن، 1992)، يعيب أمبرتو إيكو على التأويل المفرط الذي تلجأ إليه بعض القراءات أنها تذهب فيه بعيداً في استنباط دلالات النصّ إلى حدود المبالغات، وإخراج «الكلم من موضعه»، فبينما التأويل عملية طبيعية يقوم بها القارئ أو المتلقّي لإنتاج المعنى، فإن التأويل المفرط هو دخولٌ في الهذيان. أتذكّر مصطلحَ «التأويل المفرط» دائماً، على الرغم من أنه ليس من أدوات القراءة السياسية المعتادة، ولا من مجال النقد الأدبي، وأنا أطالع ردّات الفعل السياسية العراقية على الكلام الذي يصدر، في مناسبات مختلفة، من مرجعية النجف الشيعية. أوضحت المرجعية، مبكّراً، أنها لا تمارس السياسة بشكل مباشر، على الضدّ من نظرية ولاية الفقيه، وإنما تمنح النصح والإرشاد. لكن حدود النصح والإرشاد اتّسعت بحكم الأمر الواقع خلال العقدَين الأخيرَين، ليكون لهما أدوار حاسمة في توجيه الوضع السياسي في العراق. وبعض هذا الاتساع جاء بسبب حماسة الجمهور العامّ، ورغبته بالاتكاء على زعيم أو قائد روحيّ يمحضه النصح الذي يتحوّل إلى ما يشبه الأوامر المُلزِمة، وبعضه الآخر، وهو موضع النقاش هنا، جاء من الطبقة السياسية، التي أثبتتِ الوقائع أنها غير معنية بالاستجابة للنصح والإرشاد، قدر عنايتها بـ«استعمال» هذا النصح لأغراضها السياسية، والاستعمال، كما يرى مراقبون كثيرون، انطلق في مناسبات عديدة، لينجز وقائع في الأرض بعيدة، بل ومتناقضة أحياناً، مع جوهر ومقاصد النصح الذي تقدّمه مرجعية النجف. يرغب كثيرون في المجتمع الشيعي العراقي أن تعبر مرجعية النجف حدود النصح والإرشاد الى إطلاق الأوامر، والتدخّل المباشر في العمل السياسي، بما يشبه ولاية الفقيه في إيران، ولكن بنسخةٍ عراقية. والسبب في هذه الرغبة هو شعورهم بالثقة، من خلال مطالعة خطابات المرجعية، أنها تدعم الدولة وبناء المؤسّسات، فلا بأس حينها أن تندفع المرجعية بخطوة أكبر، يناقض متبنّياتها الفقهية التي ميّزت مرجعية النجف عن غيرها طوال ألف عام مضت. هذه الرغبة، وإن كانت سلبيةً وغيرَ واقعيةٍ، إلّا أنها تكشف شعور الناس بالضيق والكآبة لغياب سلطة الدولة، واستمرار مظاهر الفوضى التي تخلقها الجماعات المسلّحة في بنيان الدولة والمجتمع.

دخلت المرجعية، ثمّ التأويل والتأويل المفرط لخطابها، في دائرة الأعلى متابعةً ومشاهدةً خلال الأسبوع الماضي، بعد لقائها بممثّل الأمين العام للأمم المتحدة ومفوّضها الجديد في بعثة يونامي في العراق، الدبلوماسي العُماني محمّد الحسّان، بديلاً من جينين بلاسخارت. ويبدو أن أولى مهامّه في منصبه الجديد هي اللقاء مع السيستاني بمقرّه في النجف. ذكر موقع المرجع السيستاني في الإنترنت خلاصةً لما جاء في اللقاء، ومن بينها تأكيد ضرورة «إعداد خطط علمية وعملية لإدارة البلد اعتماداً على مبدأ الكفاءة والنزاهة في تسنّم مواقع المسؤولية، ومنع التدخّلات الخارجية بمختلف وجوهها، وتحكيم سلطة القانون، وحصر السلاح بيد الدولة، ومكافحة الفساد على جميع المستويات». وعلى الرغم من أن ردّات الفعل المختلفة في الإعلام ومواقع التواصل العراقية كانت تدور حول عبارة «حصر السلاح بيد الدولة»، إلّا أنها ليست جديدةً، ولا تتكرّر على لسان المرجعية فحسب، ورؤساء الحكومات المتعاقبة، إنما على لسان أصحاب السلاح أنفسهم أيضاً. إنها ليست النقطة التي مثّلت ضربةً موجعةً لتيّار السلاح. وإنما لاقترانها مع عبارة أخيرة في البيان تقول «ولكن يبدو أن أمام العراقيين مساراً طويلاً إلى أن يصلوا إلى تحقيق ذلك، أعانهم الله عليه». فهنا إقرار واضح أن المطالب السابقة كلّها لم تتحقّق بعد، فبعد عشرين سنة لا تنميةَ ولا تحكيمَ لسلطة القانون ولا محاربةَ للفساد ولا حصرَ للسلاح بيد الدولة. وعلى الرغم من أن البيان واضح ولا يحتاج إلى تأويل، إلّا أن القنوات الاعلامية التابعة لتيّارات السلاح، ومدوّنيهم في مواقع التواصل الاجتماعي، عبروا مرحلةَ التأويل المفرط إلى الهذيان، فالمرجعية، بزعمهم، لا تقصدهم، ولا تقصد المليشيات المتمسّحة بعنوان المقاومة، إنما جنساً غريباً من الكائنات لا يستطيع أحدٌ التعرّف إليه. إذا مررنا على هذه الخطابات التأويلية كلّها التي تعيد انتاج خطاب المرجعية ليكون شيئاً آخرَ، فإننا سنصل إلى نتيجةٍ أنه لا ضرورةَ للحديث عن حصر السلاح في يد الدولة، لأنه لا يوجد سلاح خارج سلطة الدولة. فيصبح كلام المرجعية حينها غامضاً ولا دلالة له.

حرب السودان و«معضلة بيللو»

مدى الفاتح

إن كان في حرب السودان الكارثيّة خيرٌ سيكون أنها سلّطت الضوء على خفايا كثيرة متعلّقة بالروابط الثقافية والاجتماعية بين سكّان هذا البلد، الذي اتضح لنا أننا لم نكن نفهمه بشكل كافٍ. جعلت الحرب كثيرين منا يسمعون للمرّة الأولى عن «العطاوة»، وعن مشروعهم وحلمهم بتحقيق دولة عبر عملية موسّعة لـ«تطهير الجغرافيا». وأخبرتنا حرب السودان أيضاً أنه، وفي اللحظات المفصلية المهمّة، لن يكون لقيم الوطن والمواطنة، وحتى الإسلام، أيّ سلطة على الأفراد، الذين سيختارون الانحياز إلى القبيلة، التي تكون رابطتها عندهم أكبر وأقوى من كلّ انتماء.

يمكن لكثيرين أن يبادروا إلى نفي هذه الخلاصات، قائلين إنهم ما يزالون مؤمنين بالوطن ورافضين أن يتعاملوا مع الناس وفق خلفياتهم. معظم من يبادرون إلى التقليل من قوة الانتماءات القَبَلية هم من الصادقين في أقوالهم وإحساسهم، ومن الحريصين على وحدة السودان، التي يخشون أن تهدّدها القراءات المستندة إلى الإثنيات والقبيلة. مع ذلك، جعلتنا حرب السودان بتفاصيلها ومآسيها المؤلمة مُجبرَين على مواجهة السؤال: هل عامل القبيلة أساس في تصوّرات السودانيين عن أنفسهم؟ ... ليست إجابة هذا السؤال مُجرَّد نعم ولا، بل هي نسبية لا يحدّدها سوى موقع المخاطب وخلفيته الثقافية والاجتماعية. بالنسبة لنخبة الخرطوم مثلاً، الارتباط بالقبيلة هشّ، وكذلك الحال بالنسبة لمناطق الوسط والشمال، التي تعرّضت مجتمعاتها لعمليات تحديث مكثّفة جعلتها تؤمن بالدولة وبهيمنتها وتستسلم لسيطرتها عليها. مثل أيّ مجتمع حديث، وفي انعكاس لنظرية العقد الاجتماعي، تخلّى سكّان هذه المناطق عن حقّ الدفاع عن النفس وامتلاك السلاح في مقابل القبول باحتكار الدولة للعنف، كما تخلّوا عن الروابط القَبَلية والعرقية، التي لم تلبث أن حلّت في محلّها روابط أخرى سياسية واجتماعية عابرة للإثنيات. حتى الافتخار بالقبيلة في هذه المناطق مُجرَّد احتفاء ثقافي بالمقولات والقصص الشفاهية والأشعار، التي لا تتحوّل إلى بناء سياسي، ولا إلى علاقة ولاء مطلق. لذلك، حين يقول شخص من أبناء أحياء الخرطوم العريقة أن الانتماء القَبَلي لا يعني له الكثير أتفهّم هذا، وأتفهّم كيف أن من الصعب لمثله أن تشرح أن جهةً ما إنّما تحشد على أساس قَبَلي. ويقودنا هذا إلى الضفة الأخرى، ففي مقابل ثقافة المركز، التي نجحت في صهر الولاءات وتعزيز مكان الوطن قيمةً تعلو على القيم الأخرى كلّها، هناك مجتمعاتٌ في الأطراف ما تزال بعيدةً من الوصول إلى هذا الانصهار، وما تزال تحتاج وقتاً أطولَ من أجل استكمال عمليات الحداثة والتحديث. للشرح، نقول إن دعوة أحد أقطاب قبائل الشمال مثلاً أو تصريحاته قد لا تمثّل ابن القبيلة، الذي يعيش في الخرطوم. في المقابل، فإن دعوةً مماثلةً لزعيم قبلي في غرب السودان يكون وقعها مختلفاً على المنتمين إلى القبيلة، الذين يدينون بالولاء لقيادتها، والذين لا يسعهم إلّا قول إن تلك الدعوة تمثّلهم. هكذا ينتج عندنا نوعان من المواطنين: مواطن يعيش حالة استرخاء ولا يزعجه أن يكون منزوع السلاح والإرادة في مواجهة الدولة، التي يرضى بما تقسمه له من نصيب في الثروة، ومواطن آخر متحفّز للقتال لا يثق في مؤسّسات الدولة، فيعتمد على نفسه في المدافعة وفي خوض معاركه، كما يعتمد على سلاحه في المطالبة بحقوقه السياسية والاقتصادية. المواطن المتحفّز مؤمن بأن السلطة في الخرطوم مشغولة بالتآمر عليه. ولذلك يبالغ في الانحياز لرابطته العشائرية، التي تكون هي الأساس، الذي تنشأ عليه مجموعاته المقاتلة وانتماءاته الحزبية.

> المواطن المتحفّز مؤمن بأن السلطة في الخرطوم مشغولة بالتآمر عليه، فيبالغ في الانحياز لرابطته العشائرية

المستويات المختلفة في التعامل مع الدولة تظهر في التسليح الأهلي، فبينما يكون حمل السلاح في المناطق الطرفية أمراً شبه طبيعي، تبقى مناطق الوسط والشمال في أغلبها غيرَ مسلّحة. ربما تنحصر وظيفة السلاح في هذه المناطق المسالمة عند بعضهم في بضع طلقات إبّان حفلات الأعراس، فتؤمن الغالبية بأنْ لا حاجة للاحتفاظ بالسلاح.

عيش مجموعات كبيرة من الناس في ما يمكن تسميته «زمن القبيلة»، يعني في ما يعنيه أن السياسة بمعناها الحديث لا معنىً لها، فمن المستبعد، والحال هكذا في تلك المجتمعات، أن تُقدّم البرامج السياسية على الولاء القَبَلي. أنتج لنا هذا ظاهرةً فريدةً من نوعها تتمثّل في ارتباط قبيلة أو منطقة معيّنة بحزب سياسي.

الأخطر ما يظهر إبّان لحظات التمرّد والحروب، كالتي نعيشها حالياً. تقاتل السلطة المركزية اليوم تمرّداً لا يمتلك حتى اللباقة الكافية، التي تستر منطلقاته العنصرية، فلا يجد حرجاً في إعلان كراهيته لقبائل ومكوّنات بعينها (الشايقية مثلاً)، في الوقت الذي تحتضن فيه الدولة في جهازها التنفيذي وفي مفاصلها الحسّاسة أفراداً منتمين لهذه الحاضنة المتمرّدة مطلوب منهم العمل بتجرّد، ونسيان كلّ انتماء، سوى الانتماء إلى كيان الدولة.

قبل أيام، لفت الانتباه تمرّدُ ضابط يحمل اسم عثمان بيللو. صحيح أنه لم يذكر ذلك في بيانه، الذي حاول أن يضفي عليه بعض البطولة باستخدام عبارات مثيرة للسخرية، من قبيل اختيار «الانحياز لصوت الحقّ»، لكن بالإمكان الاستنتاج أن من أكثر أسباب تمرّده أهميةً اختيار عائلته صفّ «الجنجويد». هذا المثال، الذي يعيد إلى الأذهان قصصاً أخرى مشابهةً، يوضّح صعوبةَ الأمر ووجود معضلةٍ متعلّقةٍ بضمان ولاءات الأفراد. بالنسبة لبيللو ورفاقه الآخرين المنشقّين، فإن دعاية المليشيا ومشروعها الهادف لخلق انقلاب اجتماعي ومنح المجموعة التي ينتمون إليها، من القبائل والإثنيات، فرصة السيطرة على الدولة، والتغوّل على الفضاء السياسي والاقتصادي فيها تبدو أكثر واقعية من الخطب حول الوطن الواحد، والجيش، الذي تتكسّر عنده الانتماءات. ما سميتها «معضلة بيللو» تخبرنا أن هؤلاء المنشقّين لا يرون في تمرّدهم أو تخابرهم مع أعداء الدولة خيانةً، فالدولة ومؤسّساتها كلّها تصبح في تلك اللحظة بالنسبة إليهم مُجرَّد كيان هلامي.

(كاتب سوداني في باريس)

كاريكاتير
عماد حجاج

أفريقيا وحرب الهُويّات

سمير حمدي

تشهد قارّة أفريقيا حالة من النزاعات والصراعات والحروب الأهلية بشكل مستمرّ. ويمكن القول إن أفريقيا المدارية هي المنطقة من العالم التي شهدت (بأشكال مختلفة) أطول الحروب الأهلية والعرقية عقوداً طويلة، وقد أدّت إلى سقوط آلاف الضحايا وتشريد ملايين من البشر. وصحيح أن تكرار الصراعات في هذا الفضاء الجيوسياسي قد تداخلت فيه عوامل دولية واقتصادية، وتنازع على النفوذ، إلّا أن هذا لا يكفي لفهم الوضع المتوتّر باستمرار بعيداً من مراجعة دور الهُويّات المستحدثة والنزاعات العرقية في تأجيج حالة الحرب المستمرّة، التي تتخلّلها فترات من الهدنة والسلم الأهلي. تعقيد التشنجات المصاحبة للهُويّة أو أزمة الهُويّة، التي تعانيها الدول الأفريقية، تستحق منعطفاً تأملياً مهمّاً. علاوة على ذلك، في محاولتنا لفهم أفريقيا اليوم، لا يمكننا إخفاء التأثير السلبي للصراعات شبه المزمنة في مستقبل هذه القارة. وبالتالي، من المهمّ أن نفهم خصوصيات وعموميات هذه التشنّجات التي تستمر عقوداً إلى ما لا نهاية تقريباً، وأحياناً من دون نتائج يمكن التنبؤ بها. ففي القرن العشرين، كما هي الحال الآن، كانت أفريقيا ولا تزال مسرحاً مؤلماً ومروّعاً للصراعات المتعلّقة بالهُويّة أو الصراعات العرقية والسياسية. تتعلّق صراعات الهُويّة بالنزاعات الثقافية التي ترافق الصراعات الاقتصادية والسياسية أو العسكرية والإقليمية بين عدة جماعات ذات أصول عرقية أو دينية أو ثقافية مختلفة. وينشأ هذا النوع من النزاعات عندما تقتنع جماعةٌ ما، عن حقّ أو خطأ، بأنها مهدّدة بالزوال، على المستويين المادي والسياسي، من خلال الهيمنة الحصرية لمجموعة أخرى، وهو أمر لا يطاق. وبعبارة أخرى، إنّنا نتحدّث عن هذا النوع من الصراع عندما يكون البقاء الفعلي (في حالة التطهير العرقي) أو الرمزي (في حالة الإقصاء السياسي والمشاركة في الحكم) للجماعة العرقية في المحكّ، عندما تشعر بأنها محرومةٌ، ليس من أرضها أو إقليمها فقط، ولكن بشكل أكثر جِدّية عندما تشعر بأنها محرومةٌ من حقّها في العيش وفق هُويّتها وخصوصيتها. إن صراع الهُويّة ليس مُجرَّد صراع هيمنة أو غزو، بل هو صراع يعيشه أبطاله على أنه صراع دفاعي، وهذا ما يجعلها تميل إلى الوحشية والدموية انطلاقاً من شيطنة الآخر المختلف عرقياً أو ثقافياً، كما حصل في نزاعات رواندا وبوروندي والمجازر المتنقّلة بين عرقيتَي التوتسي والهوتو.

من المنظور البنيوي، يعتمد صراع الهُويّة على آلياتٍ نفسية تتعلّق بالوعي الجمعي للجماعة العرقية أو الدينية، إذ يبدو أن صراعات الهُويّة هي نتاج ما يلحق الذات الجمعية للجماعة من اعتداءات في الحقيقة، هذه الاعتداءات، والرغبة في الشفاء منها من خلال استخدام العنف، تُبنَى في شكل أساسي من القادة العرقيين والسياسيين. إن الجماعات التي تخشى على بقائها تعتمد على العنف وتستعدّ له وفقاً لذلك، من خلال تهيئة الظروف الملائمة لإطلاق العنان له. وفي السياق نفسه، ليس العنف متأصّلاً، ولكنه مشروط بالمواقف وحالة التعبئة السياسية والثقافية وشحن الجماعة العرقية ضدّ الآخرين. في الأساس، تعبّأ صراعات الهُويّة انطلاقاً من التضامن الجيوثقافي للتفاوض، من موقع قوة، على تقاسم إيرادات الدولة المركزية مع ممثّلي الجماعات المماثلة الأخرى. والحقيقة أن صراعات الهُويّة تنطوي على نرجسية جماعية، بمعنى أنها تؤثّر في الفرد والجماعة التي ينتمي إليها، ويتحقّق وجوده الاجتماعي من خلالها.

في مواجهة الدولة الديكولونيالية، وفي مواجهة البؤس الاقتصادي، والتفكّك السياسي، تصبح الهُويّة الجماعية لجماعة بشرية مرّة أخرى النقطة المستقرّة الوحيدة، وتصبح الهُويّة للمجتمع وللفرد واحدةً من المعايير الهيكلية الحاسمة. حدثت صراعات الهُويّة الأفريقية أو الصراعات العرقية السياسية في دول غرب أفريقيا ووسطها وشرقها، وتشهد على ذلك أمثلة الصراع الليبيري، وحروب الطوارق في مالي والنيجر، وحروب كيفو وإيتوري في الكونغو الديمقراطية، والصراع في دارفور السودانية، والحرب الرواندية، والصراع البوروندي.

(كاتب تونسي)

هل أخطأت «حماس»؟

عدي جوني

بعد أكثر من عام على معركة طوفان الأقصى وتداعياتها في غزّة، والمنطقة عموماً، بما في ذلك المستجدّات الجارية في الساحة اللبنانية، يبدو السؤال عما إذا كانت حركة حماس قد أخطأت أم أصابت مشروعاً أمام التضحيات الكبيرة التي قدمها (ولا يزال) الشعب الفلسطيني في غزّة والضفة الغربية، ويقدمها الشعب اللبناني. كثيرة المقالات التي تناولت هذا السؤال، وتنوّعت في مواقفها وتبريراتها، لكن ما يسعى إليه هذا المقال لا يتجاوز فكرةَ توسيع العدسة في محاولةٍ لقراءة عناصرَ أخرى لا يمكن رصدها إن بقي المشهد محصوراً في إطارٍ جغرافي وسياسي محددَين.

منذ النكبة في العام 1948، القضية الفلسطينية جزءٌ من صراع جيو - استراتيجي عالمي ترسم معالمَه في المقام الأول مصالحُ الغرب الرأسمالي الاقتصادية، التي تُحدِّد مساراتِ (وأدواتِ) السياسة الخارجية لهذه المنظومة برمّتها، على الرغم من تعميتها بشعارات برّاقة مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان. وإذا كانت بريطانيا هي التي أعطت الصهيونية وعد بلفور، فإن الولايات المتحدة كانت (ولمّا تزل) الراعي والداعم الأكبر لكيان الاحتلال الإسرائيلي الذي نشأ أصلاً بعيداً من التفسير التاريخي الديني، ليلعب دوراً وظيفياً في منطقةٍ تشكّل واحدةً من أكثر مصادر الطاقة أهميةً، وتطلّ على ممرّات مائية تكفل استمرار المبادلات التجارية، أي ديمومة الغرب الرأسمالي وسيطرته. بيد أن التحوّلات الكبيرة التي جرت على مستوى الصراع الجيوستراتيجي، منذ تسعينيات القرن المنصرم، والدراسات عن اقتراب موعد نضوب الوقود الأحفوري في فترة لا تتجاوز العام 2050، ومع ظهور الغاز بديلاً نظيفاً يساعد في الحدّ من الاحتباس الحراري، استدعت هذه العوامل بمجموعها تبدّلات تكتيكية في شكل الصراع العالمي، مع بقاء ديمومة المصلحة الرأسمالية استراتيجيةً ثابتة.

انطلاقاً من هذا التوصيف الذي يعرفه الجميع، يمكن القول إن قطاع غزّة الصغير بات في مركز الصراع العالمي والشهوة الرأسمالية للحفاظ على مكاسبها، وكأنّ القدر كتب على هذا القطاع أن يكون مرّة أخرى تحت لعنة الجغرافيا، ولكن ليس لأنه جزء من أرض فلسطين التاريخية، بل لأنه مُهدَّد بتداعيات تناذر فرديناند ديليسبس ومتلازمة إيلات.

وما دام الشيء بالشيء يُذكَر، تعني كلمة «تناذر» في العربية توخّي الحذر، فأنذر بعضُهم بعضاً شرّاً أي توخّوا الحذر من شرٍّ قد يقع استتباعاً لحدث ما. ألم يُكرّس ديليسبس (يُعزى الفضل إليه زوراً بشقّ قناة السويس، وليس إلى العمّال المصريين)، تناذراً جيوسياسياً وضع المنطقة بأكملها تحت المهداف الرأسمالي؟

... لكن ومع التحوّلات الجديدة التي طاولت رقعة المصالح الاستراتيجية، وجدت كارتيلات الرأسمالية الكُبرى أن تناذر ديليسبس انتهى مفعوله، الأمر الذي يستدعي انزياحاً جغرافياً جديداً يتّفق مع عالم ما بعد حداثوي يختصر المسافات والكلفة المادّية في إطار مشروع الممرّ الهندي في مقابل طريق الحرير الصيني، لتدفع فلسطين مجدّداً ضريبة الموقع الجغرافي والجنون الأيديولوجي والسُعار الرأسمالي.

أما المتلازمة، فتعني مجموعةً من السمات أو الاختلالات التي يمكن التعرف إليها، وترتبط بمرض أو خلل معيّن لم يحدث بعد بالضرورة. يكفي أن نضع كلمةَ قناة إيلات أو «قناة بن غوريون» في محرّك البحث لنقرأ ما يقوله مسؤولون وخبراء في الكيان الصهيوني. يوضّح مهندسون إسرائيليون أن القناة ستكون منافسةً لقناة السويس، لأن المسافة بين إيلات والبحر المتوسّط ليست طويلةً، وأن قناة إيلات ستكون مختلفةً عن قناة السويس التي تجري فيها الملاحة باتجاه واحد فقط، ما يضطر السفن الداخلة للانتظار حتى تخرج السفن المتّجهة نحو المتوسّط، والعكس صحيح. أي أن الكيان الصهيوني يسعى إلى شقّ قناتَين مستقلّتَين تسمحان بالملاحة في الاتجاهين معاً، دخولاً وخروجاً، فضلاً عن أنها، بحسب المصادر ذاتها، تتمتّع بميزة أخرى تتمثّل في طبيعة الأرض الصخرية الصلبة التي تتحمّل أيّ ضغط خلافاً لقناة السويس التي تحتاج طبيعتها الرملية إلى صيانة دورية.

> كان الكيان الصهيوني سيهاجم غزّة ويعمل على تدميرها وتهجير سكّانها لو لم تبدأ «حماس» طوفان الأقصى

يكفي أن نلقي نظرةً على خريطة فلسطين المحتلّة لندرك ونفهم لماذا تسعى تلّ أبيب إلى تطوير ميناءي أسدود وحيفا ليتّسعا للسفن القادمة عبر القناة الجديدة، وليكونا الموقع الأثير للرأسمال الغربي لتأمين احتياجاته من مواد الطاقة، وتوفير فرص التبادل التجاري بكلفة أقلّ، بل ويفسّر ما يقصده بنيامين نتنياهو بعبارة «تغيير وجه الشرق الأوسط». لكن من يقف عائقاً جغرافياً وسياسياً وأمنياً أمام هذا المشروع؟ ... الجواب غزّة. أي أن الكيان الصهيوني كان سيهاجم غزّة ويعمل على تدميرها وتهجير سكّانها حتى لو لم تبدأ «حماس» عملية طوفان الأقصى، وكان الكيان سيختلق جبلاً من الذرائع ولو كان حجراً طائشاً أصاب بوابةَ مستوطنة في غلاف غزّة. فهل أخطأت «حماس»؟ ... بات الجواب واضحاً.

(كاتب ومترجم سوري)

اللبنانيون ووعود ترامب بإنهاء الحرب

رندة حيدر

منذ إعلان فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، تسود موجةٌ من التفاؤل في وسط لبنانيين كثيرين وعدهم (تربطه علاقة مصاهرة بلبنان) خلال حملته الانتخابية بإنهاء الحرب وإعادة السلام والأمن والاستقرار إلى هذا البلد. كما ساهم في إشاعة التفاؤل مستشار الرئيس الأميركي في الشرق الأوسط، مسعد بولس، اللبناني الأصل، ووالد صهر ترامب، الذي لعب دوراً جوهرياً في جذب أصوات العرب عموماً، واللبنانيين من المسلمين في ولاية ميشيغن، واقنعهم بالتصويت لصالح ترامب. وكان بولس قد أوضح، في أكثر من اطلالة ومناسبة، أن الرئيس ترامب سيستخدم نفوذه لدى رئيس الحكومة الإسرائيلية لإقناعه بالموافقة على وقف إطلاق نار في لبنان، يجري خلاله التفاوض على اتفاق دائم ينهي الصراع بين لبنان وإسرائيل، ويحلّ مسألة سلاح حزب الله.

في غضون ذلك، تحدثت تقارير إسرائيلية عن أن إسرائيل تبحث إمكانية وقف إطلاق النار، وأن ذلك يجري في ضوء أمرَين أساسيَين: إعلان الجيش الإسرائيلي أنه استكمل تحقيق الأهداف التي وُضِعت لعملية التوغل البرّي المحدود، التي ينفّذها منذ أكثر من شهر وأسبوع، وأنه ينتظر حالياً ما ستقرّره الحكومة في هذا الشأن. ورغبة رئيس الحكومة الإسرائيلية أن يُظهِر انفتاحه وتجاوبه مع دعوة ترامب إلى وقف الحرب، سواء في لبنان أو في غزّة، قبل دخوله البيت الأبيض.

والسؤال المطروح بقوة مع الحديث عن استمرار عاموس هوكشتاين في وساطته بين إسرائيل ولبنان بطلب من الرئيس ترامب، واحتمال قدومه إلى المنطقة، هل فعلاً هناك ما يبرّر تفاؤل اللبنانيين بأن ترامب يمكن أن يحقّق وقف النار؟ والسؤال الثاني، الذي يفرض نفسه: ما هو الإطار الجديد للتفاوض الذي سيطرحه هوكشتاين على الطرفَين، وما هي فرص نجاحه؟

وفي الواقع، يبدو من الصعب تقديم إجابات واضحة وقريبة من اليقين أولاً في ضوء تطوّر المواجهات العسكرية بين إسرائيل وحزب الله، ومن جهة ثانية، في ضوء الخداع الذي مارسته الحكومة الإسرائيلية طول العام الماضي بشأن مفاوضات وقف إطلاق النار مع حركة حماس، التي لم تنجح سوى مرّة في العام الماضي (2023)، وفي مثل هذا الشهر منه، ومن بعدها تحوّلت مفاوضاتٍ عقيمة تدور في دائرة مفرغة، بينما يستكمل الجيش الإسرائيلي «تطهير» شمال غزّة ممّن بقوا هناك، بالقصف وبالتجويع وبالحصار.

ما نشهده اليوم في لبنان صيغة لا تعلم كاتبة هذه السطور إذا كانت موجودةً في القاموس العسكري لحرب استنزاف غير متناظرة. وليس عدم التناظر ناجماً عن التفاوت في القدرات العسكرية للطرفَين، فكلّنا يعرف أن حزب الله يخوض حربه في ظلّ تفوّق جوي عسكري واستخباراتي إسرائيلي مرعب، لكنّه تمكّن من تكبيد الجيش الإسرائيلي خسائرَ بشريةً وغيرَ بشريةٍ قد يتكتمّ الجيش على إعلانها، وكما تسبّب بخسائر اقتصادية للمنطقة الشمالية في إسرائيل، وعطّل، إلى حدّ بعيد، الحياة العادية للإسرائيليين في منطقة واسعة من المناطق التي يشملها قصفه، فهؤلاء يستيقظون منذ ساعات الصباحات على صفّارات، قبل خروجهم إلى أعمالهم، تجبرهم على الهرع إلى الأماكن المحصّنة، تودّعهم في نهاية اليوم صلية صاروخية. واللافت، حرص الحزب على عدم إيقاع خسائر كثيرة في صفوف المدنيين هناك.

في المقابل، تحصد حرب الاستنزاف الإسرائيلية أثماناً مؤلمةً وباهظةً بشكل لا يمكن مقارنته بما تشهده إسرائيل. لبنان كلّه يعيش تحت وطأة آلة الحرب الإسرائيلية الجهنّمية التي تمارس تدميرها المنهجي ضمن ثلاث حلقات. حلقة النار الأولى هي البلدات اللبنانية المحاذية للسياج الحدودي. لا يمكن حالياً تقدير نتائج عملية «التنظيف» التي تقوم بها القوات الإسرائيلية منذ أكثر من شهر، لكنّ الأكيد أنها على الأرجح أوجدت واقعاً جديداً، وحوّلتها مناطق غير قابلة للحياة، كما فعلت إسرائيل في الحزام الضيق من غزّة المتاخم لبلدات «غلاف غزّة». حلقة النار الثانية هي التدمير المنهجي والهمجي للبلدات الجنوبية الواقعة ما بعد نهر الليطاني، وتحويل بعض أحيائها صورةً عن أحياء مخيّم جباليا وبيت لاهيا، وكذلك مناطق واسعة من البقاع، بينما مناطق تعاني من الفقر والحرمان، ما فاقم مأساة الناس هناك. وبالطبع، هناك القصف الليلي لأحياء الضاحية الجنوبية، الذي يتوسّع ويصبح أكثر تدميراً. حلقة النار الثالثة هي الاستهدافات من دون إنذارات أو تحذيرات، تطاول المناطق اللبنانية كلّها، ويسقط يومياً جرّاءها ضحايا، أغلبيتهم من النساء والأطفال الذين هربوا من الموت في بلدتهم، فإذا بآلة الموت الإسرائيلية تصل إليهم في الأماكن التي اعتقدوا أنها آمنةً، تماماً كما يحدث للغزّيين الذين تجبرهم إسرائيل على النزوح إلى أماكن «آمنةٍ»، ثمّ تستهدفهم هناك.

> يريد ترامب صفقة مع نتنياهو ضمن إطار يتعدّى لبنان، بدءاً من اتّفاق تطبيع مع السعودية، وانتهاءً بتفاوض مع إيران على اتفاق نووي جديد

مسعد بولس، والد زوج ابنة ترامب، سبتمبر 2024 (جينا مون/Getty)

يعترف الأمين العام الجديد لحزب الله، نعيم قاسم، بضخامة التضحيات، ويشدّ على أيدي النازحين من أبناء بيئة حزب الله، ويعدهم بالنصر، ومنذ فترة لم يعد الحزب يعلن أسماء شهدائه، وبدأ المدنيون في لبنان يتحمّلون الثمن الباهظ للمواجهة العسكرية غير المتناظرة مع إسرائيل، كما الحال في غزّة. لكن «حماس» وجّهت في 7 أكتوبر (2023) صفعةً لا تنسى لإسرائيل، بينما حزب الله يدفع ثمن سوء الحسابات، واعتقاده أن حرب الإسناد ستظلّ ضمن حدود اشتباك معيّنة، ولن تتدهور حرب إبادة أخرى ضدّه، وضدّ الشعب اللبناني بأكمله. في هذا المشهد من الخراب والموت، يأتي ترامب بوعوده التي يتعلّق بها لبنانيّون. ترامب، الذي يُحبّ عقد صفقات، يريد التوصّل إلى صفقة مع نتنياهو، كما يقول بولس مستشار ترامب، لوقف الحربين في لبنان وغزّة، ضمن إطارأوسع بكثير، يتعدّى لبنان إلى دول المنطقة، بدءاً من اتّفاق تطبيع مع السعودية لقاء تسوية فلسطينية ما، وانتهاءً بالتفاوض مع إيران على اتفاق نووي جديد.

في هذه الأثناء، سيبقى المدنيون في جنوب لبنان وبقاعه وضاحيته، وسكّان غزّة في شمال القطاع ووسطه وجنوبه، ضحيةَ آلة الموت والدمار الإسرائيلي. وسيظلّ اللبنانيون يتمسّكون «بحبال الهوا» للوساطة الأميركية الموعودة، والخوف من اصطدام الوساطات الأميركية الجديدة بالتعنّت الإسرائيلي، ومن تبدّد الآمال التي عقدها اللبنانيون على ترامب.

(كاتبة لبنانية)

من بدّد بايدن وهرس كامالا هاريس؟

عيسى الشعيبي

وسط فيض متلاطم الأمواج، في بحر التحليلات والتوقّعات والتعليقات المتباينة بشأن مغزى فوز دونالد ترامب الكاسح في الانتخابات الرئاسية الأميركية، تودّ هذه المطالعة تكثيف الضوء في واحدٍ من أبعاد هذا المشهد المثير للهواجس والتحسّبات والمشاعر المختلطة، سواء داخل أميركا أو خارجها، وذلك لكثرة ما تشي به عودة الرئيس السابق من ممكنات وتحوّلات وافتراضات مصحوبة بسلسلة طويلة من علامات استفهام وتعجّب، لا حصر لها، تخاطب شعوب العالم ودوله، بما في ذلك دول (وشعوب) هذه المنطقة رخوة القوام، هشّة العظام، شديدة الانكشاف أمام مختلف التقلّبات والتحوّلات والمتغيّرات الدولية. ولعلّ السؤال المشفوع بالترقّب في العنوان أعلاه، يوجز ما تودّ هذه المساهمة تقصّيه من أجوبة تقبل النقاش وتدعو إلى إثرائه، لأنه السؤال المطروح، ليس على طبقة الكتّاب والمثقفين العرب فقط، المخاطبين بهذه الانعطافة المحتملة في سياسات الدولة العظمى الوحيدة، تحت قيادة ترامب الثاني، وإنما أيضاً على النُخب الفكرية والمحلّلين في فضاء الكرة الأرضية، ونعني به التساؤل الحارّ: من بدّد إرث نصف قرن من حياة جو بايدن السياسية هذا التبديد كلّه، هكذا في غضون آخر عام من ولايته اليتيمة، ومن هرس (سحق) شخصية نائبته كامالا هاريس هرساً كاملاً، في نحو لم يُبقِ لها ولم يذر، بهذه القسوة كلّها؟ لا أحسب أن أحداً من المتسبّبين (وهم كثرٌ في كلّ حال) بتبديد إرث بايدن من دون أن يتركَ له بصمةً خاصّةً (سيناتوراً ونائب رئيس ثمّ رئيساً) وأنهى أربع سنوات من عهده الباهت بالفشل، أكثر من جو بايدن نفسه، وليس هناك أيضاً من هرس شخصية نائبة السيّد الرئيس هرساً ساحقاً ماحقاً أكثر من كامالا ذاتها، ومن ثمّة، على جو وكامالا، قبول الدعوة من دون تردّد (بالإذن من أمّ كلثوم) لفعل الندم وبوس القدم على الغلط بحقّ الغنم، كما أن عليهما معاً ألّا يتذرعا بالعلل، أو بالبحث عن مبرّرات واهية، على قاعدة «لو أن التضخمّ، لو أن الإعلام، لو أن الحزب، لكانت النتيجة غير شِكل» من دون أن ينفي ذلك، بطبيعة الحال، وجود عواملَ موضوعيةٍ وذاتيةٍ صلبةٍ، واعتبارات داخلية شتّى، أسهمت من دون ريب في الوصول إلى هذه النتيجة المتوقّعة. غير ان الإضافة التي يمكن وضعها في صدارة هذه المقاربة التأملية، وتركيز الضوء فيها بصورة كثيفة، ماثلة في حقيقة أن العامل الخارجي كان حاضراً في لعبة الانتخابات الرئاسية هذه المرّة، سيّما حرب الإبادة الجماعية على غزّة، التي شارك فيها بايدن بكلّ ما في وسعه، وسكتت عنها كامالا هاريس سكوت «الفريق أول أبو الهول». وبالتالي، كان لغزّة صوت مسموع في صناديق الاقتراع للمرّة الأولى، وكان لها قسط وافر في صنع هذه الهزيمة الساحقة لإدارة الصهيوني الكبير (كما يُحبّ أن يُعرّف عن نفسه) ولنائبته المعتصمة بالصمت المدوّي، المفتقرة لروح الزعامة وحسّ الأمومة، بل ورهافة الضمير الإنساني، حين تجاهلت أهوال المذبحة، وأغمضت بصرها عن الأشلاء الممزّقة، من دون أن تشعر يوماً بوخزة ضمير، أو يندى جبينها بحبّة عرق مالحة. معلوم أن جملةً معتبرةً من الحقائق والمتغيّرات والاعتبارات الداخلية الأميركية المحضة، قد تضافرت معاً لتحقيق هذه الهزيمة الساحقة، ليس لكامالا هاريس وحدها، وإنما أيضاً لكلّ من بايدن والحزب والإدارةِ بكل مركّباتها، ومعلوم أيضاً أن أداء الحملة الانتخابية لنائبة الرئيس لم تكن موفّقة، إلّا أن ذلك كلّه لا يحجب حقيقة أن الحراك الطلابي والمظاهرات الجماهيرية المندّدة بحرب الإبادة على غزّة، ناهيك عن الانقسامات في الحزب الديمقراطي، قد أسهمت بقسط وازن في تحقيق هذه السابقة في تاريخ الانتخابات الرئاسية الأميركية. إذا كان صحيحاً أن الأولويات الاقتصادية للناخب الأميركي تتقدّم كلّ ما عداها من مسائل خارجية، وأن جماعات الضغط الصهيونية قادرة على إنجاح المتنافسين الموالين لإسرائيل، فإن من الصحيح أيضاً أن تغاضي جو بايدن، ليس عن المقتلة الرهيبة فحسب، وإنما أيضاً تغاضيه المفرط عن الصفعات المتتالية الموجّهة له تباعاً من ناكر الجميل بنيامين نتنياهو، قد غيّرت المزاج داخل الحزب الحاكم، وأوغرت صدر الجيل الصاعد، بمن فيهم طلبة الجامعات المرموقة.

عن «الحقيقي» محمد إبراهيم أبو سِنّة

محمد طلبة رضوان

قابلته أول مرّة في المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة. سنوات طويلة مرّت، عشرون عاماً أو يزيد، هذا إذاً هو محمد إبراهيم أبو سنّة، الذي درسنا قصيدته «النسور» في المرحلة الثانوية، ثم قرأنا له كثيراً، وعنه قليلاً، أقلّ ممّا يستحقّ مشروعه الشعري الضخم، يجلس هادئاً في ثياب بسيطة، ويحتفي بهذا الشاب الذي يعرّف نفسه واثقاً بأنه شاعر. دعوتُه إلى ندوة جماعة مغامير الأدبية. وافق، وقال: «طبعاً آتي إليكم، لا لكي أقرأ أشعاري، إنما لأسمع، وأقف على واقع القصيدة، فالواقع يشكّله الشباب». اتفقنا أن نستمتع بأشعاره أولاً، ثمّ يسمعُنا، أثنى كثيراً على ما أعجبه، وكان لطيفاً مع ما لم يعجبه، ولم يتوقّف اهتمامه هنا، بل دعانا إلى ندواتٍ عدّة، وتحدّث عنا، وبشّر بنا، وراهن علينا، من دون أدنى غرَض سوى القيام بدوره.

كان أبو سنّة من أبناء الجيل الثاني لقصيدة التفعيلة، شعراء الستينيّات، وكما راجت ثنائية أحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور في الجيل الأول، على غرار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، راجت ثنائية أمل دنقل وأبو سنّة. كنتُ قد قرأت وسمعت من نقّاد هذا الجيل عن مقالب أمل دنقل في أقرانه، وخاصّة أبو سنّة، الذي كان هادئاً متأمّلاً بعيداً من أجواء الصراعات والنميمة، فسألتُه، في غير براءة، عن رأيه في أمل، فكان إيجابياً، وقال، بصدق، إن أمل كان شاعراً فذّاً، يشتغل على القصيدة، ويمنحها اهتمامه كلّه، روحه، ويومه، وجلستَه في المقهى، وصحّته، وأنه كان يستحق أكثر من وظيفة بسيطة في منظّمة التضامن الأفرو - آسيوي، لا تكفيه، ولا تخدم موهبته. سألته عن محمود درويش فقال ببساطة: «أكثر شاعر أهميةً في جيلنا، والسبب ليس موهبته فحسب، فأمل مثلاً يفوقُه، لكن درويش صادف دعماً مستحقّاً صرفه عن أيّ شيء سوى إبداعه». يحكي لي عن تجربته في كتابة الأغاني، حين سمعه أحدهم في المقهى، هو وسيد حجاب، فطلب منهما كتابة أغنيات مسلسل إذاعي، ففعلا، وذهبا لقبض المكافأة، فإذا بها ثلاثة جنيهات لكلّ منهما. يقول: «نبّهتني سعادتي بهذا المبلغ إلى خطورة هذا الطريق، خاصّة أن الأغنيات بالعاميّة، وأنا أكتب الفصحى، فقرّرت أن تكون الأولى والأخيرة، واخترتُ الشعر». تعدّدت اللقاءات، وازداد إعجابي بالرجل «الحقيقي»، الذي يساوي أفكاره، من دون أدنى ادّعاء، وهو أمر نادر، ليس في الأوساط الأدبية وحدها، بل في زماننا. «قلت أحاور قلبي/ ما معنى الجنّة يا قلبي؟/ قال تجوّل في نفسك حتى تصل إلى الإنسان/ وتجوّل في الإنسان إلى أن تصل إلى وطنك/ وتجوّل في وطنك حتى تصل إلى الله/ قلت وما معنى النار؟/ قال خواء الأشياء من المعنى/ أن تصبح شيئاً كالأشياء.. يشرى ويباع/ أن تنصاع إلى ما لا يُدخلك إلى ذاتك/ أن تسكنك الأشياء الباردة الإيقاع». لا ينشغل أبو سنّة بصنع أسطورته، خارج قصيدته، لا يتملّق ناقداً أو صحافياً، لا يتسوّل دراسة أو خبراً، إنّما ينشغل بضميره، بمراقبته، وصقله، فـ«الضمير هو الوعي بالعالم، الوعي الأخلاقي، والوعي المعرفي، والوعي الجمالي».. من هنا يقرأ، ليس من أجل القصيدة وحدها، إنّما من أجل ضمير الشاعر، يقرأ في الفلسفة، وفي المسرح، وفي الرواية، وفي علم الجمال، وحين أسأله عن الدين يقول مبتسماً: «نشأتُ أزهرياً، ريفياً، وحفظت القرآن طفلاً». رحل أبو سنة عن عالمنا، قبل يومين، عن عمر يناهز 87 عاماً، وترك 12 ديواناً، ومسرحيَّتَين، بالإضافة إلى دراساته النقدية وترجماته. «البحر موعدُنا وشاطئُنا العواصف/ جازف/ فقد بعد القريبُ ومات من ترجوه واشتدّ المخالف/ لن يرحم الموجُ الجبان ولن ينال الأمنَ خائف/ القلب تسكنه المواويل الحزينة والمدائن للصيارف/ خلت الأماكن للقطيعة/ من تعادي أو تحالف؟/ جازف ولا تأمن لهذا الليل أن يمضي/ ولا أن يُصلح الأشياءَ تالف/ هذا طريق البحر لا يفضي لغير البحر/ والمجهول قد يخفى لعارف/ جازف فإن سُدّت جميع طرائق الدنيا أمامك فاقتحمها/ لا تقف/ كي لا تموت وأنت واقف».

ألم يحنِ الوقتُ لنفهم الدرس؟

عبد الباسط سيدا

من العادات التي ألزمت بها نفسي زيارة المتاحف والأماكن الأثرية التي أشعر بمتعة استثنائية في أثناء تجوالي في أنحائها، وذلك بفعل الاستلهام الذي أشعر به وأنا أدقّق النظر، سواء في القطع الأثرية أو في الآثار العمرانية والمعرفية والفنّية التي تضمّها تلك المتاحف أو الأماكن الأثرية.

وأتذكّر جيداً كيف هيمنت عليّ مشاعر متباينةٌ وأنا أزور توب كابي (قابي)، الباب العالي في إسطنبول للمرّة الأولى قبل نحو عقد ونصف العقد. تجوّلت في أجنحته المختلفة، ومشيت في الطرق الضيقة الجميلة التي كانت تفصل وتربط بين تلك الأجنحة. ولكن ما كان يشغل ذهني أكثر من غيره محاولتي عقد مقارنة بين ما كنت أشاهده وأتلمّسه وأقف أمامه وأشتمّ رائحته والمعلومات التي كانت لديّ من قراءاتي عن التاريخ العثماني بشأن دور الباب العالي وأهميته في تاريخ الدولة العثمانية. وكنت أحاول أن اتخيّل عملية اتخاذ القرارات التي كانت تتمّ فيه على المستويَين الداخلي والخارجي، سواء في مرحلة قوة الدولة أو ضعفها، فالدولة العثمانية، حتى وهي في أضعف مراحلها، كانت قادرةً (بناءً على خبراتها المتراكمة في نحو خمسة قرون حكمت فيها منطقتنا ومناطق أخرى) على تدبير المكائد للأمراء، الذين كانوا يحاولون استغلال ظروف الدولة، فيسعون إلى الانفصال عنها، أو تشكيل إمارات تكون شكلياً تابعةً لها، ولكنّها في واقع الحال تمثّل الخطوات الأولى في طريق تشكيل كيانات من شأنها أن تمثل خطراً على الدولة العثمانية، وممتلكاتها في مناطق توسّعها.

وقد كان لبنان من بين المناطق التي استهدفتها خطط الباب العالي، لدى ظهور أيّ بادرة توحي بمخاطر تجاوز المشاريع الخاصّة بهذا الأمير أو ذاك حدودَ المسموح به. فلبنان المنطقة، حتى قبل أن يصبح دولةً معترفاً بها رسمياً من الهيئات والمنظّمات الدولية، كان منطقةً ترى السلطة العثمانية فيها مفتاح الساحل والداخل السوريَين، والتواصل مع العالم الخارجي. كما أن قربه من أوروبا (قبرص واليونان)، ومن تركيا بالذات، ذلك كلّه من بين العوامل التي أثارت اهتمام الدولة العثمانية به رغم ضعفها، ورغم تدخّلات القوى الدولية إبان الأحداث والحروب التي كانت بين الدروز والموارنة، في الفترة ما بين 1840-1860.

ففي حين أن فرنسا كانت تدعم الموارنة، كان الإنكليز يدعمون الدروز، هذا في حين أن العثمانيين كانوا يسعون لإثارة الخلاف بين الطرفَين، وذلك لإضعافهما والسيطرة عليهما. ومع تشكيل الدولة اللبنانية عام 1920، بناءً على مرسوم فرنسي قضى بفصل لبنان عن سورية، وهو الأمر الذي أثار حفيظةَ المسلمين السنّة، لأنهم تحولوا في البلد إلى أقلّية بعد أن كانوا جزءاً من الغالبية في المستوى السوري العام. ومنذ ذلك الحين، ساد مناخٌ من عدم الثقة بين الطوائف اللبنانية، الأمر الذي دفع بها إلى الاستقواء بقوة خارجية إقليمية أو دولية. فبينما كانت الطوائف المسيحية، لا سيّما الموارنة، تحرص على علاقاتها المتميّزة مع فرنسا، كان السنّة في لبنان يجدون في علاقاتهم مع الدول العربية صمّام أمان بالنسبة إليهم، يمكّنهم من أداء دور فاعل في الحياة السياسية على مستوى البلاد، تمثّل في مشاركتهم للموارنة في الإدارة والحصول على الامتيازات. هذا في حين ظلّ الشيعية الطائفة المهمّشة، التي أثتبتت وجودها من خلال انفتاحتها على الجميع، وتبنّي أفرادها القضايا اللبنانية والعربية الإسلامية.

ومع ذلك، ظلّ التحسّب والحذر والاستعداد لأيّ طارئ من السمات التي تميّز علاقات الطوائف البينية، قبل الاستقلال اللبناني وبعده. ورغم الانفراجات التي كانت بعد الاستقلال، لا سيّما في عهد الرئيس فؤاد شهاب، ما بين 1958-1962، ظلّ الخوفُ العاملَ المتحكّم بماهيّة العلاقات بين المكوّنات الشعبية، ونعني هنا الخوف الظاهري العلني المُفصَح عنه، إلى جانب الخوف الكامن، وهو الذي كان أقرب إلى الحذر والتحسّب، منه إلى الهلع والخشية من المستقبل المجهول الحالك المنتظَر. وقد استطاع لبنان بعد الاستقلال بحكم موقعه الجغرافي، ونظامه الديمقراطي التوافقي، بناء أفضل العلاقات مع الدول العربية، خاصّة الخليجية منها، ومع عدة دول مهمّة على الصعيد العالمي.

ولكن المحنة الكبرى بدأت مع عسكرة الأحزاب اللبنانية المعبّرة عن هواجس ومصالح الطوائف، لتتحوّل من قوى سياسية إلى مليشياتٍ تحتاج إلى أجواء مضطربة، بل إلى حروب، لتتمكّن من تبرير وجودها، وتشدّ عصب أنصارها. وكان من أسباب مآسي لبنان محاولات التيّارات القومية العربية المتنافسة، من البعثيين في كلّ من سورية والعراق، والناصريين في مصر، وحتى من القوميين العرب الذين كانوا يمثّلون النُخْبَة والمثقّفين ممّن تخصّصوا في التنظير لمعظم المسائل التي فرضها واقع انتشار الفكر القومي، والأيديولوجية القومية، ضمن مختلف المجتمعات العربية، لا سيّما القريبة من لبنان.

ومع التوافق العربي على نقل منظّمة التحرير الفلسطينية من الأردن إلى لبنان على إثر الأعمال القتالية بينها وبين القوات الأردنية (1970-1971)، وجدت المنظّمة في لبنان أرضيةً مناسبة لممارسة نشاطاتها، وتنظيم قواتها، والقيام ببعض العمليات العسكرية؛ ولكنها لم تكتف بذلك فحسب، بل تحوّلت، مع الوقت، إلى فاعل سياسي في السياسات الداخلية اللبنانية، خاصّة في ظلّ الانقسام الحادّ الذي كان بين القوى المسيحية، وتلك التي كانت تقدّم نفسها بوصفها القوى الوطنية اللبنانية، التي كانت تضمّ مجموعةَ قوىً قوميةٍ أو يساريةِ الهوى. وهي القوى التي وجدت في المنظّمة عوناً للاستقواء في مواجهة شركاء الوطن من المصنّفين في خانة «الأعداء». وكانت الحرب الأهلية اللبنانية، التي انتهت رسمياً باتّفاق الطائف عام 1989، ولكنّ الأمور، رغم الاتفاق المشار إليه، كانت ما زالت عالقةً بين مختلف الأطراف، خاصّةً بعد أن أطبق جيش نظام حافظ الأسد وأجهزة مخابراته على معظم مفاصل الدولة والمجتمع اللبنانيَين، وهي القوات التي كانت قد دخلت لبنان بتوافق إقليمي دولي بحجّة منع تصاعد الحرب الأهلية المشار إليها، ومساعدة اللبنانيين في سبيل استمرارية العيش المشترك. وفي واقع الحال، كان حافظ الأسد يريد، بموجب تفاهماته مع الولايات المتحدة وحليفاتها، ومعها ضمناً إسرائيل، إبعاد ياسر عرفات عن القضية الفلسطينية، وهي القضية التي كان الأسد يستخدمها ورقةً لتعزيز دوره الإقليمي، كما فعل لاحقاً مع الورقتَين اللبنانية والعراقية ومن ثمّ الكردية. ولبلوغ هذا الهدف، تعاون حافظ الأسد بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، الذي تمخّض عنه إخراج منظّمة التحرير من لبنان، مع النظام الإيراني لتشكيل حزب الله، ليكون الوكيل الحصري الوحيد للمقاومة في الجنوب اللبناني. ويمكن في ضوْء هذا التوجّه الأسدي، فهم خلفية معركة طرابلس (1983)، وحرب المخيّمات (1985-1988).

> التحسّب والحذر والاستعداد لأيّ طارئ من السمات التي تميّز العلاقات بين الطوائف، قبل الاستقلال اللبناني وبعده
>
> يتطلّب المشروع الوطني إبعاد لبنان عن الصراعات الإقليمية والدولية، ويعطي الأولوية للمصالح الوطنية اللبنانية

كما كان الأسد وراء الانشقاقات التي تعرّضت لها حركة فتح. وهكذا اختلطت الأوراق في الساحة اللبنانية، التي باتت ميداناً للقوى المتنافسة والمتصارعة على المستويين الإقليمي والدولي. فبعد الانقسامات المجتمعية الشاقولية التي دفعت بأعضاء كلّ طائفة (إلّا في ما ندر على مستوى الأفراد) إلى الاصطفاف خلف زعيم الطائفة الذي بات مع الوقت زعيم حزب سياسي بعد التخلّي عن سلاحه بموجب اتفاق الطائف.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى بات حزب الله، بفعل الدعم الإيراني الهائل له، السلطة الحاكمة في لبنان عملياً، والمتحكّم بمفاصل القرار، وبات في مقدوره بالتعاون والتفاهم مع شريكه نبيه برّي إغلاق البرلمان، وتعطيل انتخاب رئيس الجمهورية في مدى سنوات، كما كان الحزب المذكور، في عهد الأسد (الابن) على وجه التحديد، الضلع الأساس في «محور المقاومة»، واستخدم الحزب أداةً قمعيةً ضدّ السوريين الثائرين على استبداد وفساد الضلع الأسدي في المحور المذكور، الذي يقوده النظام الإيراني. واليوم، بعد ما حصل كلّه من عمليات قتل جماعية لقيادة حزب الله وكوادره الميدانية، وبعد الممارسات السلبية كلّها، التي انعكست في واقع الشيعة في لبنان، وبعيداً عن سائر مظاهر التشفّي ومحاولات استغلال الفرصة، نرى أن المشروع الوطني اللبناني ما زال هو الحلّ الذي يمكنه إخراج اللبنانيين من دائرة المنافسات والصراعات، والقطع مع استخدام الخطط ذاتها، التي ثبت فشلها الذريع في مختلف المناسبات. ومثل هذا المشروع لن يكون كاملاً مكتملاً من دون احترام خصوصيات سائر المكوّنات المجتمعية اللبنانية بغضّ النظر عن أحجامها، والإقرار بحقوقها، ضمن إطار دولة الدستور والقانون، التي تقف على مسافة واحدة من الجميع بحياديتها الدينية والأيديولوجية والمذهبية والجهوية وغيرها. كما يتطلّب هذا المشروع إبعاد لبنان من الصراعات الإقليمية والدولية، ويعطي الاعتبار الرئيس للمصالح الوطنية اللبنانية بوصفها في رأس الأولويات. وهذا فحواه عدم القبول بتحول فريق لبناني، مثلما يفعل هذا الحزب منذ نحو 42 عاماً، رأسَ حربةٍ، وقوةً ضاربة لصالح بشّار الأسد، ضدّ الشعبَين اللبناني والسوري، وهو يفعل ذلك بأوامر من ضبّاط الحرس الثوري الإيراني، وبالسلاح والمال الإيرانيين. اليوم، هناك تحدّيات كُبرى تلوح في الأفق (وأخرى قد تظهر وقت اللزوم) لضبط المعادلات الإقليمية وفق الحسابات الدولية المتمركزة راهناً حول المنافسات، وربّما الصراعات مستقبلاً حول التكنولوجيا والمصالح الاقتصادية والممرّات التجارية والثروات الكامنة.

هل أخذنا الدروس من التجارب الفاشلة التي شهدتها منطقتنا في المائة سنة الماضية على الأقلّ، أم إننا ما زلنا مصرّين على السير في الطريق ذاته، المؤدّي نحو الانتحار أو التدمير الذاتي الذي ينتظر مجتمعاتنا ودولنا، لصالح حفنة ممّن قبلوا بدور المتعهّدين لصالح القوى الإقليمية والدولية المؤثّرة، ممّن يمتلكون المشاريع والرؤية، بغض النظر عن مواقفنا منها؟ ... وذلك كلّه سيتأثر بهذه الصيغة أو تلك بما ينتظره العالم من حقبةٍ ترامبيّةٍ جديدة تحمل معها كثيراً من الهواجس، وربّما الآمال التي تحتاج عمليةُ تحقّقها إلى القراءة الصحيحة للإمكانيات الذاتية والظروف الموضوعية، بعيداً من سياسة الشعارات التي لم تجلب لمنطقتنا وشعوبها سوى الكوارث والإخفاقات المزمنة.

(رئيس سابق للمجلس الوطني السوري)

هل هو تموضع جديد للأسد؟

شوكت غرز الدين

يبدو أن رأس النظام السوري يحاول إخراج نفسه من «محور الممانعة» وعلاقة التبعية مع إيران، ليتموضع تموضعاً جديداً في «محور الاعتدال العربي». تدفعه إلى ذلك ضغوطٌ روسية وعربية في سياق تصعيد بين «محور الممانعة» وإسرائيل. وبهذا التموضع، يهدف بشّار الأسد إلى إرجاء استهدافه إسرائيلياً كما حذّره فلاديمير بوتين، وإلى انتظار فرصة إعادة بناء نظامه السياسي المنهار بشروط جديدة، فهل ينجح؟... قد لا يستطيع الأسد الخروج تماماً من تموضعه القديم، كما لا يستطيع التزام تموضعه الجديد تماماً. ولكن هذا لا يمنع من المحافظة على رأسه وإتاحة إمكانية لإعادة بنائه نظامه.

هناك كثير ممّا يشير إلى أخذ الأسد مسافةً من «محور الممانعة» و«وحدة الساحات»، منها التراجع عن تهريب المخدّرات والسلاح إلى الأردن بقصد زعزعة استقراره، بوصفه مطلباً أردنياً وسعودياً وإماراتياً. أيضاً، الصمت عن الاعتداءات الإسرائيلية على سورية وعدم إمكانية الإسناد في حربي غزّة ولبنان، مع أن الدور السوري اقتصر على تمرير الدعم اللوجستي الإيراني، الذي تطارده إسرائيل بغارات جوية في أماكن عدّة في سورية. ويمكن إضافة غياب البديل الذي يمكن أن يعقد اتفاقيةً مع إسرائيل (وفق شروطها). وربّما باتت إيران نفسها لا تعوّل على سورية.

كما هي كثيرة المؤشّرات إلى تموضعه الجديد في «محور الاعتدال»، التي صارت أشدّ وضوحاً منذ قمّة المنامة في مايو/ أيار 2024، ومنها فتح معبر أبو الزندين، وإعادة افتتاح السفارة السعودية في دمشق، ووعود بإعادة إعمار جزئية. ويضاف إليها الكلام على الاستجابة الإنسانية والتعافي المُبكّر من المبعوث الأممي، غير بيدرسون، ورفض الرئيس الأميركي، بايدن، توقيع قانون مناهضة التطبيع مع الأسد، ومن ثمّ تعديله بما يفرّغه من معناه في 29 يوليو/ تمّوز 2024. الشيء الذي فتح الباب أمام قيادة إيطالية لسبع دول أوروبية لإعادة العلاقات الأوروبية السورية.

> قد لا ترى إيران في سورية حليفاً أو وكيلاً للتنسيق معه لخوض معركتها مع إسرائيل، فتسعى إلى الخروج هي ومليشياتها من سورية

وعلى الرغم من أن المشهد معقّد ومتداخل في المنطقة، لكن يمكن الاستناد إلى نقطتَين لتحليله. الأولى، ازدياد حاجة إسرائيل إلى الولايات المتحدة. وهذا يجعل الإدارة الأميركية (الحالية، والجديدة بقيادة ترونالد ترامب) متحكّمةً في الحرب التي تتزامن معها بوادر خروج الأسد من تموضعه القديم، وانفراط «وحدة الساحات». وفي الوقت نفسه تبدّت حاجة إسرائيل الملحّة إلى الدعم العسكري والمالي والسياسي من الولايات المتحدة، التي تدفع ثمن ما يزيد على 25% (بحسب صحيفة الغارديان) من حرب إسرائيل. ويحدث ذلك كلّه في الوقت الذي تدمّر فيه إسرائيل غزّة فعلياً، وتجعل الضفة الغربية ضحيةً، وتشرع في اجتثاث حزب الله من جذوره، وتتهدّد إيران والحشد الشعبي (الشيعي) في العراق، والحوثيين في اليمن، وتضرب الوجود الإيراني في سورية، بما يشمل مطارَي حلب ودمشق. مع هذا كلّه، نجد البيت الأبيض يؤجّل وقف الحرب، ويحمي نتنياهو من العدالة الدولية، وربّما يستغلّ حاجة إسرائيل خير استغلال لتمرير استراتيجيته غير المعلنة لهزيمة «محور الممانعة»، ورأسه الإيراني تباعاً. الشيء الذي يتيح لأميركا التخفّي بستار حرب إسرائيل الهمجية، وكأنها غير ذي صلة بها، بغية النأي عن أوزارها وتكلفتها السياسية والإنسانية أمام العرب والمسلمين والمجتمع الدولي، بما فيه المجتمع الأميركي ذاته. النقطة الثانية أن التفاوض السياسي يستند إلى موازين القوى. وبما أن هناك خللاً كبيراً في موازين القوى بين إسرائيل وأميركا وحلفائهما من جهة، وبين إيران، التي تقود «محور الممانعة»، وحلفائها بما فيهم الصين وروسيا، من جهة ثانية، فإن التفاوض غير وارد في هذه المرحلة، سواء مع إيران على مشروعها النووي واستمرار وجود وكلائها في المنطقة، أو مع الفلسطينيين على حلّ الدولتين، أو مع لبنان على قرار مجلس الأمن 1701، أو مع سورية لوقف الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة ضدّ الوجود الإيراني فيها. فكيف للأسد أو لـ«حماس» وحزب الله وإيران أن يعقدوا صفقةً رابحةً معاً، على الرغم من أنهم لم يحاربوا معاً؟... الأرجح أنه ليست هناك أيّ صفقة لصالح هذه الأطراف بما فيها إيران، وذلك لأن المهزوم في الميدان لا يفاوض المنتصر، وإنْ فاوضه لا يحصّل شيئاً يذكر من ناحية، ولأن الأيديولوجيا لا تقاوم التكنولوجيا المشبعة بالذكاء الاصطناعي من ناحية أخرى.

ومن هنا، استخدمت الاستراتيجية الأميركية الجيش الإسرائيلي لتوجيه ضربة إلى إيران، ولا سيّما بعد إطلاق الصواريخ الباليستية على إسرائيل، وبعد محاولة اغتيال رئيس وزراء إسرائيل، بنيامين نتنياهو، بواسطة «وكلاء إيران»، كما قال نتنياهو نفسه، وتبنّي حزب الله للعملية (كما أعلن مسؤول العلاقات الإعلامية في الحزب محمّد عفيف)، ولكنها لم تطاول المشروع النووي ولا النفط أو الطاقة، كما طلب بايدن من نتنياهو، بل طاولت بعض مواقع الصواريخ الباليستية ومصانعها ومنصّات إطلاقها. الشيء الذي قد يهدّد بانفجار الوضع الداخلي الإيراني، ومشكلة التوريث التي يزمع خامنئي تمريرها. وتبدو الولايات المتحدة ضعيفةً لا تستطيع فرض وقف الحرب، ولكن هذا الضعف قد يكون غطاءً لاستراتيجية هجومية لتقوية إسرائيل وإضعاف إيران أكثر فأكثر. أمّا ما يخص رأس السلطة في سورية فتميل التحليلات المستندة إلى الوقائع إلى استثنائه، وربّما تحضيره ليعقد اتفاقية إسرائيلية محصّلةً للسياق الحالي وتموضعه من جديد.

يقول محللون إن إدارة بايدن تتخبّط، وليس لديها خطّة كبرى أو خطّةً لليوم التالي لوقف الحرب، فهي تفتقر إلى الإرادة، أو إلى الوسائل لتأديب الإسرائيليين أو توجيههم أو ضبطهم. ونتيجة ذلك، تركّز بشكل أساس في تجنّب حرب إقليمية موسّعة. ولكن ماذا لو كان هذا التفسير سطحياً؟ وماذا لو كان ذلك يقلّل من شأن مقاصد واشنطن؟ ماذا لو رأت الشخصيات الرئيسية في الإدارة الجديدة أن هذه لحظة تاريخية وفرصة لإعادة تشكيل توازن القوى العالمية والشرق أوسطية؟ فوفق تحليلات التخبّط الأميركي، يُنظر إلى الولايات المتحدة عموماً أنها تمارس ردات الأفعال المحابية لإسرائيل ضدّ إيران ووكلائها، غير أنه يمكن النظر إليها أفعالاً استباقية أيضاً، كما عودتنا واشنطن منذ أحداث 11 سبتمبر (2001). ولكن، يبدو أن التركيز ليس في العملية بحد ذاتها، بل في نتائجها، وما تفتحه من فرص لها في المنطقة. ولهذا، يبدو أن هناك تفسيراً مختلفاً واحتمالياً.

ومن جانب آخر، نجد إدارة بايدن حاسمةً وغير متخبّطة، وربّما عدوانية عندما يتعلّق الأمر بأمن إسرائيل (وهو الحال مع ترامب). وقد أبقت إيران محاصرةً في وقت تعمل إسرائيل فيه على محو شبكة النفوذ الإيرانية، وتقضي على رؤية إيران للمنطقة. وتستخدم الولايات المتحدة الاعتداءات على إسرائيل لتضعها موضع الدفاع عن النفس لصالحها. وفي مرحلةٍ ما، قد يقرّر البيت الأبيض أن وقف إطلاق النار ضروري فيتوقف. إذاً، ما يحدث هنا أكثر من مُجرَّد تخبّط أميركي.

ولهذا، وضع هجوم «حماس» ومناوشات حزب الله خلال العام الماضي مثل هذه الاستراتيجية اليوم، فبمُجرَّد أن شنّت «حماس» هجومها في 7 أكتوبر (2023)، وأصبحت إسرائيل في حاجة ملحّة إلى أميركا، أعطت واشنطن الضوء الأخضر لإنهاء «حماس» وأوقفت وحدة الساحات وإمكانية اتساع الحرب لتصبح حرباً إقليمية، ولكنها ناوشت قليلاً مع أنصار إيران في اليمن والعراق وسورية. بينما ركّزت إسرائيل في «حماس»، وناوشت مع حزب الله. ولكن، مع محاولات القضاء على حزب الله وتراجع إيران إلى خطاب السلام والأخوة مع الولايات المتحدة وزيادة استفزازها في الوقت نفسه، يبدو أن اللحظة مناسبة للذهاب بعيداً بواسطة إسرائيلية ورعاية دولية وقيادة أميركية جديدة.

وفي هذا السياق يطرح السؤال: هل تنجح محاولات الأسد في تموضعه الجديد؟ ربّما ينجح في استثنائه من الاستهداف شخصياً بتغيير تموضعه. ولكن النجاح في إعادة بناء نظامه المنهار يحتاج إلى حسم الحرب الروسية الأوكرانية، لأن روسيا داعمة له، وإلى خروج إيران المتوقّع من سورية. وهو متوقّع لأن الوجود الإيراني في سورية بات مكلفاً وقد لا تتحمّله إيران، خصوصاً بعد الضربات الكثيرة التي تعرّضت لها في سورية، وفي ظلّ استهداف إسرائيل لإيران نفسها نجد أنه من الممكن ألّا ترى إيران في سورية حليفاً أو وكيلاً يمكن التنسيق معه لخوض معركتها مع إسرائيل. ولذلك، تسعى إلى الخروج هي ومليشياتها من سورية. أما بخصوص الاستمرار في التطبيع مع الأسد فهو رهن باستجابته لسياسة الدول الراعية له، وبالالتزام باستحقاقين: الالتزام بالسلام مع إسرائيل. والالتزام بالحلّ السياسي استناداً إلى قرار مجلس الأمن 2254.

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **معن البياري** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads